March 2019
Vol 1 Issue 1

Manifestations of the desert in the novelist's discourse - Abdel Rahman Munif - as an example

Professor Asia Omrani
ameraniassia@gmail.com

Issn print: 2710-3005. Issn online: 2706 – 8455, Impact Factor: 1.705, Orcid: 000-0003-4452-9929, DOI 10.5281/zenodo.10491891, PP 1-20.

Abstract: Since narrative structures possess enormous artistic capabilities to present crises of reality, the conflict of ideologies, and to express cultural and social transformations in the entire world, narrative works, as a cultural form, and the novel in particular, have become the most capable of presenting the collective voice. In the Arab world, it has become a space of freedom in societies suffering from a crisis of lacking freedom and deprived democracy. Its qualitative development coincided with the line of Arab defeat, as the defeat of the Arab armies in the 1967 war was, as Ghali Shukri sees, "the defeat of a vision in thought and art, and an indicator of the escalation of the conflict between the East and the West, but the end of the vision was the beginning of the new, and the birth of the new vision in the Arab world."

Keywords: Desert, the novelist's discourse, Abdel Rahman Munif**.**

تجليات الصحراء في الخطاب الروائي -عبد الرحمان منيف- أنموذجا

ملخص الدراسة: لمّا كانت البنى السردية تمتلك قدرات فنية هائلة لطرح أزمات الواقع، وصراع الأيديولوجيات، والتعبير عن التحولات الحضارية والاجتماعية في العالم كله، فقد أصبحت الأعمال السردية، بوصفها شكلا ثقافيا، والرواية خصوصا، هي الأقدر على تقديم الصوت الجماعي. وأصبحت في العالم العربي فضاء الحرية في مجتمعات تعاني أزمة حرية مفتقدة، وديمقراطية مستلبة.

الكلمات المفتاحية: الصحراء، الخطاب الروائي، عبد الرحمان من.

التشكيل التيبوغرافي:

وهو الشكل الذي يختاره المؤلف في كتابة نصه الروائي، فهناك الشكل المائل أو البارز الذي تستخدم للتمييز بين نص وآخر أو بين العناوين الرّئيسة والفرعية في النص الروائي، بهدف إبرازها لما لها من دلالة إيحائية ورمزية وجمالية في النص، كأن يتمّ التمييز بين الحوار والسرد والمنولوج الداخلي وكل هذا التشكيل يسهم في فهم المعنى أكثر.

إن معنى إدراك هذه الخصوصية المحددة لكل مفهوم، هو الذي أوقع الكثير من الباحثين العرب في مزالق عديدة، إذ تظهر مقارباتهم أن هناك تباينا في التعامل مع الفضاء الروائي. ''وقد أخفق بعضهم في ربط الأمكنة بالحوادث ومنظور الشخصيات أو وجهات نظرها، ومقابل ذلك نجح آخرون في أن جعلوا الأمكنة تؤثر في الحوادث وتتأثر بها، وتسهم في تطور الشخ إن المتصفح للخطابات الروائية العربية بأسمائها المتداولة يلاحظ أنها كثيفة ومتنوعة مثل: المدينة، القرية، الطريق، الشارع، الساحة، الكوخ، الشقّة، المطبخ، الحديقة، الجبل، البحر، السجن، المكتب، المقهى، الجسر، البيت، الميناء، القصر، السوق، الصحراء،... الخ.

وانطلاقا من هذا التنوّع في الأمكنة وكثافتها، حاول الدرس النقدي المعاصر أن يصنّف الأمكنة إلى ''أماكن طبيعية متحركة كالبحر وثابتة كالسجن والشارع مثلا[3] ويظهر من هذا التنوّع المكاني أنه يمكن تقسيم الأمكنة إلى أماكن مفتوحة ومغلقة، خاصة وعامة، قريبة وبعيدة، مسكونة ومهجورة، عالية ومنخفضة وأضاف "حسن بجراوى": ''أماكن الإقامة الاختيارية كالبيوت الرّاقية والشعبية، أماكن الإقامة الجبرية كالسجن والمنفى،...إلخ''[4] وهناك من قسم المكان مركزا على أحد طرفي ثنائية منته/لا متنه كالكواكب والنجوم، أو ''منطلقا من فكرة تجريدية ما من خلال ثنائية أخرى عند الآخرين، وعندي مكان أمارس فيه سلطتي يتميّز بالحميمية أكثر، أما عند الآخرين فهنا تخضع الأنا لسلطة غريبة يجب أن أعترف بها، بالإضافة إلى ملكية المكان العام الذي تسيّره الدولة وتراقبه باستمرار.''[5].

إن كل هذه الأمكنة لا ترتبط فقط بالشخصيات البطلة في الخطاب الروائي، حيث يمكن أن تسند البطولة كذلك المدينة أو الشارع أو الجسر أو الصحراء أو البحر أو الحديقة،... الخ. ''فهذا التنوّع والتعدّد في الأمكنة أو الفضاءات الحكائية جعلها تتّسم بأهمية بالغة لأنها الكيان الاجتماعي الذي يحوي خلاصة التفاعل بين الفرد والمجتمع''[6] ذلك أن الإنسان ومنذ القديم يسجل عليه أفكاره وثقافته تاركا آثارا لمشاعره ورغباته الجامحة ليقرأها جيله وأجيال أخرى في المستقبل، إن هذا المكان ارتبط بالإنسان ارتباطا حميما يدفعه للإبداع الخلاق، عندما يصير عنصرا استراتيجيا في الحدث الروائي وهذا ما تفعله الشخصية الحكائية، وبذلك لم يعد المكان في أي خطاب روائي مجرّد ديكور أو وسيلة شكلية وحسب، بل صرنا نقرأ ونلمس تلك العلاقة الأساس التي تحوّل المكان إلى إطار يتفاعل مع مختلف القناعات والأفكار والمعاني الإيديولوجية التي يعتقدها الفرد في نقطة مكانية معيّنة وضمن سياق حدثي محدد، وكل ذلك يسهم بشكل أو بآخر في جعل المكان بكل أنواعه المفتوحة والمغلقة: تنتج معاني إيديولوجية عديدة متباينة بحسب الموقع الذي تتواجد فيه الشخصية الحكائية، فالشخصية الراقية والمرفهة مثلا لا يمكن أن يجعلها الروائي يقطن في بيت شعبي بسيط

وتعتقد بأفكار وذات توجّه ارستقراطي عالي المستوى أو نتصوّر شخصية أخرى محكوما عليها بالإعدام وهي تتجوّل في الشوارع وتتردّد على الأسواق والمقاهي، طليقة حرّة تتّخذ المواقف وتصدر الأحكام هكذا.

الفضاء الحكائي منتجا للمعنى الإيديولوجي:

تجسّد هذا المنحى خاصة في خماسية "مدن الملح" أو رواية"الصحراء" "لعبد الرحمن منيف" رواية التحوّلات المفاجئة التي عاشتها شبه الجزيرة العربية منذ مطالع القرن العشرين بمجيء الغرباء الأمريكان والانجليز باسم فرق التنقيب عن المال والبترول، وكان منطلقهم "وادي العيون" الواحة الخضراء التي أفزعتها الآلات والجرّافات وسلوكات الوافدين الغريبة عن الأهالي المتميّزين عنهم عقيدة وعادات ولغة، لذلك في كل يوم نراهم يهجرون أماكنهم إلى أماكن أخرى، فيتيهون وسط تلك الرّمال تحت الشمس المحرقة. وهكذا ومع مرور الوقت يتحوّل "وادي العيون" إلى خزان للقطب الصناعي الذي يستقطب الأنظار، كما تنتقل حياة الناس من الخيمة البسيطة إلى البيت الزجاجي المكيّف، ليتوسّع الصراع بين الرأسمالي المرفه والإنسان الصحراوي البسيط الذي يتيه في كل الاتجاهات بينما أصحاب الأموال والأوامر يزدادون غنى، فلا يعرفون أين يتوقفون، ولا متى؟

إن "مدن الملح" تحكي التحوّلات الكبرى التي عاشتها الجزيرة العربية بعد اكتشاف البترول، والانعكاسات المختلفة سواء أكانت على صعيد البشر أو على صعيد المكان.لقد حاولت "خماسية مدن الملح" أن تُظهر الدّور الذي لعبه النفط في إعادة رسم الخارطة الجيوسياسية للمنطقة من جهة، ومن جهة أخرى تتبعت بكثير من التفصيل التغيرات التي لحقت بالصحراء مبيّنة كيف كانت حياة البشر قبل ظهور الذهب الأسود وكيف صارت بعد تدفّقه من آلاف الآبار، جاءت الخماسية إذن: لتحمي الشخصية الصحراوية من التشويه والذاكرة من النسيان والهوية من الإلغاء إن دلالة المكان عند "عبد الرحمن منيف" عميقة عمق هذه الصحراء التي احتوت هذا الكم من الشخصيات والأحداث المتعاقبة. لذلك نلاحظ أن كل ذهنية تتعايش مع المكان الذي تتواجد فيه، هكذا يناسب "وادي العيون"/النقطة الأصل في صحراء "مدن الملح" شخصيات محدّدة على مدار كل الحكاية و"حران" و"موران" المكانان المستحدثان يناسبان شخصيات بقناعات مغايرة وذهنية مختلفة إلى حد. التناقض مع الأولى.

أ- وادي العيون ومتعب الهذال/الرّجل الأسطورة وأصالة الانتماء:

بديهيا أنه لا يمكن تصوّر فكرة ما أو اتجاه محدّد دون أن نستحضر الصوت أو الشخصية التي تحمل هذا أو تلك، لأن الفكرة لمن يحملها والاتجاه انعكاس لما يقتنع به، من هنا فإن المكان/الفضاء الحكائي يعبّر عن مجموع الإيديولوجيات التي يعتقدها من يسكن هذا المكان.

هكذا ارتبط اسم "متعب الهذال" "بوادي العيون" وهو شخصية تمثّل ذاكرة ماضي الوادي وحاضره. لقد كان كالجبل الصاعد أمام الأحداث والعواصف التي مرّت بها المنطقة، فشخصيته عمّرت طويلا، قدرها الناس وقدّسوها، لأنها كانت الحصن المنيع الذي يحتمي به الأهالي، بالرغم من بساطته وعقليته البدائية الأصلية، شديد الاعتقاد بمخلفات الماضي البعيد والقريب، رفض بكلّ جرأة وقوّة الحاضر الجديد الذي لم يشارك في صنعه، لذلك يقرّر الرحيل عندما شرع الغرباء في قطع

أوّل شجرة حين سألوا عن "متعب الهذال" فقد وجدوا من قال: « إنّه رجل، بدت الكلمة غريبة، غير مألوفة بل ومعادية أيضا، "متعب الهذال" يرحل؟ كيف يرحل ويترك الوادي،... وإلى أين يمكن أن يرحل؟ قال أحد الرّجال: "متعب" لا يترك الوادي، "متعب" يموت ولا يرحل.

- رحل منذ زمن طويل حين قطعوا أوّل شجرة.

- "متعب لا يرحل،...أراهن»[7].

هكذا أدى المكان الصحراوي بذهنية ناسه الماضوية ومعتقداتهم بالخوارق والأساطير وبدوية سلوكه ونمط تفكيره المحدود إلى إنتاج مواقف وردود مختلفة ومتناقضة بين الناس في وادي العيون، فغموض الحياة الصحراوية وقساوتها ومحدودية تفكير الفرد فيها، ولدت الاعتقاد بهذه الأوهام والترهات إلى درجة الأسطرة، بل أكثر من ذلك الإيمان بالغيبيات استنادا لما كانت تحكيه منجمات الوادي كالمنجمة المثقال عن مستقبل المكان والناس ''وبعد سنين يتذكر الكثيرون ما قالته "نجمة المثقال" بدقة: من وادي الجناح، حتى الضالع ومن السارحة حتى المطلق، النّار تلهم النار، والصغير يموت قبل الكبير، أو لها عدو وآخرها مدّ، الولد لا يعرف أباه والأخ لا يعرف أخوه...أو لها سوط وآخرها لوط، أولها النبي المختار وآخرها الدجال...وبآخر ذلك الزمان لا بد أن الناس تقوم والظلم ما يدوم وتحصل سوالف يحكيها الناس لولد الولد''[8].

لقد صدقت العقلية البدوية كلام "نجمة المثقال" حيث انتشر بين الأهالي وكل الرافضين لهؤلاء الغرباء على الوادي، وخاصة أن بعض ما نشأت به بدأ يسري في واقع"حران" بعد فترة زمنية معينة إضافة إلى أماكن خارجية/أجنبية بعيدة في أوروبا وأمريكا.

ب- المكان وإنسانية البسطاء:

يلاحظ قارئ نص "مدن الملح" أن ثمة مفارقة واضحة بين مجموع الأهالي الأصلي ينب أفكارهم وسلوكا تهم ومعتقداتهم السارية في دمائهم وبساطتهم وإنسانيتهم الواسعة، سعة تلك الصحراء ويمكن أن نمثل لهذا النموذج بشخصية حكيم " وادي العيون" وحران بعد دلك، إنه مفضي الجذعان الذي عرفه الناس وهو يمارس نشاطه اليومي بروح إنسانية عالية، مؤديا دوره بكل تلقائية، يساعد الجميع ولا ينتظر مقابلا، كان كريما ومتواضعا، نبيلا ومحبوبا لدى الجميع، كان لا ينافق لا بالمال ولا بالذهب، لقد كان مفضي الجدعان ممثل كل بسطاء تلك الصحراء ومظلوميها، كان يتمتع بقدرة عجيبة على شفاء المرضى لم ينافس أحدا، كان قويا يتحدى قساوة الطبيعة وأنانية الانتهازيين في حران قال يوما مناديا أهل "حران": « يا أهل حران، الحاضر يبلغ الغايب، ابن الجدعان مثل ما كان، لا يغدر ولا يخون، وما له بهذه الدنيا شيء، ولا يخاف إلا رب العالمين، يا أهل حران الفلوس خربت قبلكم كثيرين ... الواحد يأكل أبوه، ويقتل أمه وأخاه، لكن لا شيء يدوم ولو دامت لغيرهم ما وصلت إليهم »[22].

***المكان/ تعصب الرجل وتغييب صوت المرأة:**

ترتبط وضعية المرأة بالبيئة التي نشأت فيها وتنتمي إليها، لذلك فإن خصوصيات المرأة اليدوية الصحراوية تفترق عن تلك التي تتميز بها نظيرتها الحضرية الأوروبية أو الأسيوية مثلا.

لقد شكلت الحياة البدوية والشرقية في صحراء الجزيرة العربية نسبة عالية في نص" مدن الملح"، إلا أن حظها كان قليلا جدا إذا ما قورن بحظ الرجال، فقد انحصر حضورهن في بعض

المواقع، كما ارتبط وجودهن ببعض المهام دون أخرى، والسبب في ذلك ليس الرجل أي الأخ أو الزوج أو الأب، وإنما القناعات والقيم والتقاليد التي تسري في دم المجتمع الشرقي/ الصحراوي منذ الماضي البعيد، فقد ترسخت هذه السلبيات في ذهنية المجتمع الذي في كل يوم يرغب بل يبحث بكل الوسائل لإثبات ذكوريته المرتبطة بمرجعيات عميقة تقر بدونية المرأة وتعترف بقصورها في العديد من المواقف والظروف.

لقد تواجدت المرأة في هذا المكان المحدود لتخدم الرجل كخادمة طائعة وصبورة داخل الخيمة أو في القصور بعد ذلك، أو مقاومة، ضائعة تبحث عن مخرج لأزماتها الكثيرة من أجل أن تؤمن عيشها، فقد اقتنع الرجل بقصورها فالمجتمع بشكله هو بمفرده يتموقع في درجة أعلى، كما يمنح لنفسه القوة والكمال، وبهذا التعصب الأعمى يغيب المجتمع الذكوري في هذا المكان الصحراوي وجود المرأة ودورها المكمل للحياة الطبيعية في مجتمع إنساني سليم وحقيقي.

إن هذه المعطيات ومختلف المواصفات التي اتسمت بها عقلية هذا المجتمع البدوي الذكوري، صار ينظر إلى المرأة على أنها عنصر قاصر التفكير، مزاجي، ضعيف مشدود إلى عالم الغيبيات والتنجيم، تعيش في عوالم السلف الخرافية، لذلك هي تخرج ولا تعرف أين ستتوقف كما كان شأن "أم حسنى"[9]، فهي لا تخطط لحياتها ولا تحدد هدفا لها في المستقبل، فهي المرأة الدجالة التي تستدعى إلى قصور السلطان فتعرف كل أسراره، لما تقدمه من عقاقير ولوازم تحميه من العين والحسد والسحرة، مرة قرأت الفنجان أمام الشيخة "أم زهوة" فقالت: « وفي الفنجان يا شيخة، رسوم وعلوم، فيه سلام وكلام، وفيه اللي صار وجرى، وفيه اللي ما يندرى، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، واللي ما ينحكي اليوم، ينحكى ثاني يوم...» [10].

هكذا ظلت المرأة البدوية مشدودة إلى عوالم التنجيم بعيدة عن الواقع المعيش، وإذا خرجت عن هذه الفضاءات فإنها تقع ضحية/فريسة في يد الرجل كوسيلة للمتعة لا غير، فكان همها الخوف من أن يتزوج بعلها القوي نساء أخريات يتهدد حياتها باستمرار[11] كما فعل السلطان " خريبط" وتابعه ابنه "خزعل"بعد ذلك[12].

إن طبيعة المجتمع الصحراوي وتحكم الذهنية البدوية في علاقة الرجل بالمرأة غيبتها بشكل واضح، بل حصرت مهامها في العمل المنزلي إذا لم تكن ثمة خادمة، وإلا صارت عاطلة معزولة في دار الحريم، إذا كان الأمر يتعلق بنساء القصور المرفهة، أما إذا كانت المرأة عادية من العوام، فإن نظرة الرجل إليها لن تخرج عن إطار أنها جسد يعمل ويلبس، وقوام يجذب ورحم ينجب ولسان يشكو ويطالب... [13].

***السوق أصالة الانتماء وعمق الذاكرة الجماعية:**

لقد كان للسوق كفضاء حكائي مفتوح على مختلف العوالم والاتجاهات الأثر البالغ على تأكيد قوة انتماء الإنسان البدوي رسوخ قيم الأخوة والتعاون الاجتماعي بين الناس في علاقاتهم اليومية، الأمر الذي جعل المكان السوق في نص " مدن الملح" قيمة خاصة في علاقة الناس بعضهم ببعض، حيث كان المركز الذي يتوجه إليه الناس في المسجد وزوار المقبرة ومختلف القوافل في ذهابها وإيابها «... ففي أقصى الشرق...حيث الطريق الذي تسلكه القوافل لبلوغ "موران" يقع "سوق الحلال" وعلى أطرافه بضع دكاكين... وعلى الطرف الغربي منه يقع المسجد.. أما في الجهة

المقابلة من السوق فكانت مقبرة موران...» [14].

كما تمثل السوق ذاكرة جماعية للأطفال الذين لم يعرفوا بعد بيوتهم وأحياءهم مكانا آخر غير "سوق الحلال" عاشوا لحظات مميزة وهم يختارون أضحيات العيد، وهم يقومون بانتقاء ملابس جديدة، أما الكبار فيتذكرون أولى المشاعر وهم يتفقون على المرأة التي تكون زوجة أحد الأبناء وإجراءات ذلك، في السوق كل يوم يختلف عن اليوم الذي يليه، الناس يتناقلون الأخبار الجديدة بشكل مستمر، الغائبون يعودون، والحاضرون بالأمس ذاهبون اليوم[15] أسرار الناس تنكشف لهذا وذاك، خفايا القصور تخرج إلى عامة الناس بطريقة ما.

لقد كان "شمران الغنيبي" " القاضي" الذي يفصل في كل المواقف المعقدة، في مجال تجارة المواشي ،القضايا الم* رتبطة بالأنساب والقرابات والجميع يقصده للمعرفة والاستفسار والمشورة[16].

ج-انتشار اليد العاملة وكثافة المعسكرات:

لقد أدت الحياة الجديدة في صحراء وادي العيون في نص" مدن الملح" مثلا إلى ظهور مجموعة من الفضاءات المغلقة/المفتوحة في وسط ذلك المد الصحراوي الشاسع، فقد توافد مع فرق التنقيب البترولية الأمريكية والانجليزية التي حطت بآلاتها ومعداتها لتبحث عن الذهب الأسود عدد كبير من العمال ليتكاثروا بشكل لافت للانتباه بعد ذلك، إذ لزم على الإدارة المسيرة لعمليات التنقيب أن توفر لهذه اليد العاملة الإيواء والإطعام، لأن الخيمة لم تعد تتناسب والذهنية الجديدة التي صارت تسير الحاكم والمحكوم في" حران العرب ثم حران الأمريكان»[17].

هكذا تكثفت عملية بناء المعسكرات بطريقة سريعة جدا، ولا سيما بعد أن ازداد فضول المنقبين لتوسيع دائرة التجارة البترولية، فقد احتلت المعسكرات حيزا معتبرا في الجزء الأول/التيه من نص "مدن الملح"، وجاءت كنتيجة لسيطرة فكرة التجارة البترولية من جهة وتزايد اليد العاملة من جهة أخرى، إذ كان العمال وأغلبهم من المحتاجين البسطاء الذين أحسوا بأنهم داخل سجن يقيدهم عندما يتحكم في رزقهم اليومي، فكان المعسكر فضاء يهرب إليه العمال من الرياح والرمال التي تجبرهم على التنقل من مكان إلى آخر، ومن هنا اختاروا البقاء بين أسوار المعسكر على أن يتيهوا بين الكثبان الرملية وسط الصحراء.

د- المشاريـع الاستثمارية/تحويل للمكان وإلغائه:

***أصحاب النفوذ والبرجوازيون الصغار ينشئون فضاءات جديدة:**

وقد تجلى هذا الطرف بكل أفكاره ومعتقداته الإيديولوجية التي ارتبطت بالموقع الذي صنفوا فيه، والمركز الذي كانوا يصدرون منه الأوامر، وخاصة نص " مدن الملح" حيث نقرأ قائمة طويلة لأصحاب النفوذ الذين حولوا تلك الواحة الخضراء بشكل سريـع ومفاجئ إلى مدن كبرى تعج بالشركات المتعددة الجنسيات بتسيير عقل غربي/أمريكي واضح وسأمثل لواحد من هذه القائمة بالدكتور" صبحي المحملجي" الذي كان يؤمن بمبادئ لا يحيد عنها في علاقاته بالأفراد داخل المجتمع، وهي مبادئ تدخل ضمن تصوره للحياة وقناعاته الشخصية وطموحه المستقل الذي انطلق من "نص التيه"[18] ليتطور مساره عبر تصاعد الأحداث وتزايد عدد الشخوص الحكائية في الأجزاء اللاحقة من الرواية فقد جاء هذا الرجل إلى وادي العيون/ حران لسببين الأول يتعلق

برغبته في الحصول على ملكية أرض وعدة بساتينفي أماكن مختلفة بأرض الجزيرة، والثاني هو فضوله وولعه الشديدان باكتشاف الأماكن الجديدة متأثرا بأدب الرحلة[19]، عملته في ذلك جنون المال والعظمة ومكان يخلده به التاريـخ، وقد اتخذ من" مطيع شخانيرو" الطرف الإعلامي الذي يشهر بعبقريته الدكتور العلمية والمهنية بين الأهالي والوافدين على "حران"[20] كما يعول على أسماء أخرى في مجال النشاط المالي والتجاري ولن يمر وقت طويل حتى يخطط الدكتور" المحملجي" لبناء مشروعه المستقبلي في" حران" من خلال نظريته المضحكة" نظرية المربـع" المتكونة من أربعة مراكز هي " العقل- القلب-المعدة- ثم الجنس[21] بعد أن يتزوج " خزعل"/ السلطان ابنته " سلمى"[22] فزاده ثروة الأب/ الحكيم صبحي" المحملجي" يوما بعد آخر، فيشتري أكبر عدد من العقارات فينجر وراء وهم السلطة المادية وجنون الثروة والمجد العائلي، لذلك وبمساعدة السلطان يشرع الحكيم في التخطيط لانجاز عدة مشاريـع كبرى في مرحلة زمنية معينة، فقد انشغل بها لدرجة أنه نسي منافسه وعلى رأسهم "مقضي الجدعان" حكيم الوادي/والأهالي، الذي كان " المحملجي يسخر منه باستمرار ويحرض الناس ضده وضد طرائق علاجه، لكن مع ذلك نسي أمره، لأنه يرغب في تحقيق حلم عمره ويقوم بشراء مساحات شاسعة على طريق معسكر الأمريكان ناحية الشمال، وبعد فترة يشاهد الناس عددا من الأبنية الغريبة قيل إنها للشركة، لكن" المحملجي" كان يتردد كثيرا على المكان ويعطي بعض التوجيهات للعمال وخاصة بعد أن وضع لافتة كتب عليها«مستشفى الشفاء» سافر خارج حران، وعاد ومعه مجموعة من الأشخاص الأقارب فتفتح «صيدلية الشفاء» ومع كل هذه المباني والمشاريـع، يبقى الدكتور" صبحي المحملجي" مدفوعا بجشعه الأعمى، إذ استمر في منافسة" مفضي الجدعان" الحكيم البسيط والمتواضع الذي يعالج الناس بدون مقابل، في حين يقف "المحملجي" الرجل الرأسمالي والانتهازي مقابلا" لمفضي" فيرفض معالجة العامة وعمال المعسكر الضعفاء « لما كان الأمر مع" ابن عجيل" الذي باع أراضيه كلها غرب الإمارة لكي يدفع أجور المعالجة في عيادة الدكتور ثم في المستشفى»[23] كما وصلت لاإنسانيته إلى رفض العمال غير المؤمنين في أن يتلقوا علاجهم بالمستشفى، حيث ثمن العلاج باهض جدا[24]، الأمر الذي دفع بهؤلاء العمال وغيرهم إلى أن يقصدوا بيت مفضي الجدعان حكيم كل الناس.

***السوق/افتقاد الهوية الانتماء وإلغاء للذاكرة الجماعية:**

كانت السوق في رواية" مدن الملح" ذات أهمية خاصة في علاقة الناس بعضهم ببعض، فقد كانت المركز الذي يتوجه إليه الناس المصلون وزوار المقبرة والقوافل في ذهابها وإيابها، وبهذا الموقع تمثل سوق " الحلال" لأهل موران ذاكرتها ومركز قوتها الشعبية، وجزءا من هويتها البدوية الأصلية، كما يمثل مركزا تجاريا يقصده المصلون وفضاء مميزا ببعديه التاريخي والاجتماعي والديني[25]، حيث يندر أن يمر الناس منه ولا يتذكرون أهاليهم وأجدادهم الموتى في المقبرة، لحظات شعورية مؤثرة جدا، تذكر بأن التواصل بين الذين فوق الأرض وهؤلاء الذين تحتها لا يزال مستمرا، لأن الفروع لا تنفصل عن جذورها.

هذه هي بعض من مزايا السوق وخصوصياتها في علاقتها بالناس الذين تعودوا عليها بشكلها

وطبيعتها المتأصلة في أعماق النفس البدوية، فكيف يكون حال الناس إذا اختفت السوق من حياتهم؟، فلماذا يختفي "سوق الحلال" أو ينتقل إلى منطقة أخرى بشكل مغاير؟، ولاسيما أنه كان بالنسبة لبعض الأفراد عصب حياتهم مثل" شمران العتيبي" قاضي حران الذي كان يفصل في القضايا الصعبة والمواقف المعقدة في المجالات الحياتية الخاصة والعامة، وكذلك حال " عبيد الطويل" الذي سيموت وينتهي زمنه إذا اختفت السوق، وقد حدث ما كان يخاف منه كان ذلك يوم الجمعة عندما وقف مناديا أمام المسجد ليعلن بأن "سوق الحلال" ستتنقل إلى العوالي والحاضر يبلغ الغائب »[26] ، والغائب سيعرف أن يومه اللاحق لن يكون كيومه السابق، لأن الزمن الجديد بدأ يؤثر في حياة الناس بعد انتشار خبر انتقال السوق بثوب جديد إلى منطقة " العوالي" لأن ملامح الصدمة بدأت تتضح يوما بعد يوم، ولاسيما إثر اللقاء المفاجئ الذي وقع بين أعماق الصحراء والذين جاؤوا عن طريق البحر«... انتاب الناس قلق شديد، بعد تزايد مراكب الأمريكان...فقد كانوا يراقبون تلك الصناديق الضخمة وهي تتنقل من الماء إلى اليابسة...وتواصل وصول البواخر وازدادت تساؤلات أهالي هذا المكان النائي...» [27].

لقد أحدثت صدمة انتقال السوق إلى مكان آخر شرخا عميقا بين ماضي الأهالي وحاضرهم، كل شيء ضاع: الخيل والإبل والأرض والسوق، فجن الناس، لأن جزءا مهما من ذاكرة " موران" اختفى إلى الأبد، صارت حران/موران تعج بالسيارات، مليئة بالاسمنت والحديد لا تعرف عن وادي العيون شيئا.

***من بساطة الخيمة وأصالتها إلى المدن الكارثة:**

يتجلى هذا المظهر كذلك بشكل واضح جدا، في نص "مدن الملح"، وخاصة في الأجزاء الثلاثة الأخيرة[28] حيث النقلة السريعة والمفاجئة من حياة الخيمة إلى حياة القصور العالية، فقد جرت الأمور بصدفة غريبة، لم تخضع لتخطيط مسبق يحميها في المستقبل، فجأة صار ابن الصحراء غريبا عن المكان الذي نشأ فيه، كما نسي علامات ماضية «تغيرت موران بشكل لم يكن منتظرا ولا متوقعا»[29]، وربما هذا ما يفسر توظيف المؤلف "عبد الرحمن منيف" لكلمة " فجأة" بطريقة مكثفة جدا[30] فكل شيء حدث بسرعة فاقت كل قياس، مما جعل وادي العيون يكبر ويتوسع أكثر ليحوي الجديد/الآتي، فيفاجئ الناس لأنهم لم يعوا كيفية مجيئه والهدف منه.

هذا ما جعل الفرد يقف صامتا أمام المباني العالية والمكيفة، والسيارات المكشوفة، واحتفالات الكوكتيل المبالغ في تنظيمها من حين لآخر مقابل ال إن الانتقال من حياة الخيمة الطبيعية المتأصلة في شخصية ابن الصحراء، إلى حياة المباني الزجاجية الساطعة والمرفهة، خلقت فعلا مدينة كارثية، ذلك أنه إذا صعب الاختيار سيموت المغلوبون على أمرهم جوعا بسبب الفقر الذي ينتشر في كل مكان، وما ينتج عنه من موت بطيء وفي وضعية مأساوية كهذه التي آل إليها وادي العيون وناسه، ارتفعت نسبة المتمردين كما توسعت دائرة العصيان والفتن بين الوسط الشبابي، فقل عددهم، وارتفع عدد المسنين، ومات الكثير بسبب الفقر المدفع والأمراض المزمنة، لتتحول " موران" إلى مقبرة حقيقية بشهادة كل من يأتي لزيارتها من خارج السلطنة، « وهكذا بدت موران أحياء الفقيرة والناس الذين يقتلهم المرض والجوع والانتظار[31].

بنظر الكثيرين أشبه ما تكون بالمقبرة، فليس في هذه الأرض ذرة من فرح، خاصة حين انقطعت الأمطار وشحبت الأرض... وأصبح الناس لا يرون فيها سوى القبور...» [32].

صارت موران إذا تعج بالموتى فوق الأرض وتحتها، فهل ثمة كارثة أكبر من هذه؟.

إن سرعة التغير شوهت المكان وألغت الذاكرة الجماعية للأهالي وجعلتهم ينسون هويتهم وأصالة انتمائهم التي ارتبطت بوجود الخيمة.

إضاءة كتابة/أدب الصحراء

إذا كانت المدينة البرجوازيّة الحديثة هي التي أعطت الرواية هويتها في تصور النقد الحديث (مثل لوكاتش، وجان إيف تاديه الذي يرى أن الرواية ترتبط بالمدينة ارتباطا عضويا بحيث يصير معمار الرواية هو نفسه معمار المدينة: "قل لي أين تعيش (أو أين لم تعد تعيش) أقل لك ما ستحكيه"(33).فكيف تصبح الصحراء التي تعانق الأسطورة فضاء الرواية في عصر تشعبت علومه ومعارفه وتكاثرت أزمانه؟ هل وطأة الإحساس بفقد عالم يتهدده الزوال جعل الصحراء ملاذا علها بتمائم أرواح الأسلاف تحمي الوجود المهدد بالزوال وتضيء هويته وعالمه؟

لعل أعمال عبد الرحمن منيف و والكتابات العربية، التي اتخذت من الصحراء فضاء لها قد أحدثت تحولا قويا في الفضاءات، التي ظل الأدب السردي متصلا بها، مما يدعو إلى إعادة النظر في بعض الأفكار، التي اعتبرت الرواية أو القصة من الأجناس، التي لا يمكن أن تظهر إلا في المدن. ويفضل حسن المؤذن عبارة "كتابة الصحراء" على عبارة "أدب الصحراء" لأسباب أساسية منها أن العبارة الأولى أوسع وأشمل، تشمل المعنى المادي للكتابة المذكور أعلاه، وتشمل أدب الصحراء الشفوي، وهي قابلة لضمّ كل أشكال الكتابة القديمة والحديثة، المنتمية لأجناس الأدب المعروفة وأيضا لأشكال جديدة تقع خارج هذه الأجناس"(34)ومن ناحية ثانية، يتألف "ديوان النثر البري" للكوني من نصوص سردية لا تنضوي تحت صنف أدبي معين ولكنها تهتم باستنطاق كائنات وفضاء الصحراء مثل الرياح والمطر، والسيل، والصخور، والضباب بنوع من الوجد الصوفي، وتجليات الكشف. وكما يقول سعيد الغانمي: "في البداية كانت لغة الآباء والأجداد مكتوبة بلغة سماوية سرّية، ذلك أنها رموز مستعارة من لغة الآلهة. ومن هنا فقد احتكرها الثالوث المقدس الكهنة، والسحرة، والعرافون. وكتابة الصحراء بهذا المعنى المادي قد يكون لها مفعول أكبر وأخطر، فقد اقترنت لحظات الموت والميلاد بالنقوش والكتابات القديمة. الكتابة رموز ماديّة غامضة تنطوي على قوة خفيّة مدمرة تقتل وتميت، ولكنها قد تضمر سرا عظيما، وقد تبطن قوة تحي وتكون برفقة الميلاد"(35).

ترى كيف تجلت الصحراء في فنون السرد والكتابة الحديثة عند منيف ضمن السياق الذي أضيئت فيه؟ سياق أزمة أسطورة التقدم والتمدن في المجتمع الغربي المعاصر، وأزمة النهوض من جديد في المجتمع العربي المعاصر بعد توالي الهزائم والفجائع والانكسارات.؟

تجليات الصحراء في خماسية مدن الملح

لا بد من استذكار رؤية ابن خلدون ونحن نطل على عالم الصحراء. يصف ابن خلدون في كتابه "المقدمة" البداوة بأنها "إخلاص لقوانين الطبيعة التي لم تلوثها الحضارة، أما الحضارة فتجلب معها التنافس في القيم الكمالية الزائدة عن الضرورة، والفائضة عن الحاجة ."إن الدول تتبلور وفقا لقانون طبيعي، ثم حين

يحصل لها الملك، يتبعه الرفه، واتساع الأحوال، فالحضارة إنما هي تفنن في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ، والملابس والمباني، والفرش والأبنية، وسائر عوائد المنزل وأحواله"(36)

كما يشترك شبنغلر مع ابن خلدون في نظرته الرثائية للنزعة الطبيعية إذ يعتقد "أن المدنيات تشكل نهاية لا تستطيع أن تقف أمام تحققها إرادة أو عقل .مع ذلك تبلغها الحضارات مرة بعد أخرى، مدفوعة تتجلى الصحراء في أدب منيف مكانا متوترا بين الماضي والحاضر، بين البداوة الراسخة وبين تحولاتها الاجتماعية بعد ظهور النفط، وتدفق الحياة المدنية.

من خلال هذا التقابل الحاد يتجلى المكان بخصائصه الجغرافية، والروحيّة، والاجتماعيّة. إنها الصحراء: الجحيم والفردوس في آن معا. الحنين والحلم ومسرح الواقع، الذي يهدد قيمها بالزوال المتمثل بمستثمر غاز يستثمر ثروات باطنها ويكرس التخلف ما دام غير ضار بمصالحه.

يقول منيف في مطلع رواية "النهايات" :"إنه القحط؛ القحط مرة أخرى وفي موسم القحط تتغير الحياة والأشياء، وحتى البشر يتغيرون وطباعهم تتغير، تتولد في النفوس أحزان تبدو غامضة أول الأمر، لكن لحظات الغضب، التي كثيرا ما تتكرر تفجرها بسرعة تجعلها معادية جموحا، ويمكن أن تأخذ أشكالا لا حصر لها، أما إذا مرت الغيوم عالية سريعة فحينئذ ترتفع الوجوه إلى أعلى، وقد امتلأت بنظرات الحقد والشتائم والتحدي"(37)

يضيف منيف في مكان آخر من الرواية نفسها: "في المواسم الجديدة تخضر الطيبة، وتعبق من كل جوانبها وتمتلئ بالورود والنباتات العجيبة الألوان والأشكال في بداية الربيع حتى الجهة الجنوبية، التي تبدو أواخر الصيف متجهمة قاسية لا يعرف الإنسان ولا يستطيع أن يفسر كيف كانت تشد أهل الطيبة في بداية الربيع، لكي يذهبوا أفواجا لالتقاط الثمار العجيبة المخبوءة في باطن الأرض، وما يخالط ذلك المهرجان من الذكريات عن أيام كانت فيها الحياة أكثر روعة وخصبا"(38)

تتجلى الصحراء في هذين الاقتباسيين بين القحط والرغد. والطيبة قرية تقع على حافة الصحراء، تمثل نقطة التقاء الوافدين من المدينة بحثا عن الصيد، والمتعة والراحة بالقادمين من الصحراء والبداوة، وهم أصحاب المكان الذين يواجهون تحدياته الصارخة، ويتكيفون مع قسوة الطبيعة وجفاف الحياة.والطيبة اسم لقرى كثيرة منتشرة على مساحة الوطن العربي كله، كما شرق المتوسط هو كل بلد. وهي بمناخها وأجوائها وأناسها، تعبر عن معاناة الإنسان العربي في تجربة الحياة المعاصرة. لقد رسم منيف جغرافيا روائية للمنطقة توازي جغرافيتها هادفا إلى أن يرى عصره كله كيف تكوّن. فتصير جغرافية المكان مكونا عضويا في طبيعة الحدث. الأساس عند منيف، هو "الإقناع الفني "وليس إطلاق الأسماء الحقيقية على الأمكنة. وكما يشرح قطب عبد العزيز بسيوني: "ليست أسماء الأماكن مهمة، بل ما يجري في هذه الأماكن. الحالة هي الأساس. هذه الحالة التي تحاول تحليل وفهم أخطر وأشرس انقلاب وتحول في الطبيعة والناس والمجتمع"(39).

من خلال الطيبة التي تقع على حافة الصحراء كما مدن الملح المتناثرة حول الصحراء، يعبر منيف عن حالة الإنسان العربي الواقع في هوة الضياع والقلق والتمزق فهو مشدود بين وترين

شديدي الحساسية والتوتر. كذلك، كما يقول فيصل دراج: "يتجلى المكان قلقا قلق الإنسان ذاته وروحه موزعة بين ماضيه العريق وأصالته وتشوقه للوجود الخارجي الضاغط"(40). في رواية "النهايات" تتجلى الصحراء طبيعة سمحاء تشوهها السلطة القاتلة، تخل بتوازنها، فتتحول إلى وجود ذبيح.

ولأن الروائي يكره الكل الطاغي الذي لا يعترف بالأجزاء المستقلة "فإن صحراءه شخصية حية حرة واضحة التفاصيل، لها مواسم من الفرح والكآبة والغضب والاعتدال كأنها مخلوق شاسع الأطراف يستفزه الأذى وينعشه الحنان فهي كيان حي جدير بالرعاية. هذا التصور يعين "بطولة المكان" مقولة جمالية أيديولوجية في تصور منيف للعالم كما لو كان الراوي يؤنسن المكان. تلك الأنسنة التي جعلت الكاتب يضع في "مدن الملح" مشهدا مؤثرا عن الأشجار المتوجعة الصارخة المتضرعة، التي تجتثها الآلات، وترمي بها جانبا، مدينا التقنية المتطورة التي تقلب طبيعة عذراء، وتروّع إنسانا أعزل"، كما يشرح فيصل دراج(41).

في رحابة الصحراء ما لا يأتلف مع مدن الحداثة الخائبة، ويكون إنسان الصحراء نقدا لإنسان سلطة ميت الملامح فحين تتحدث الرواية عن القادمين من المدينة تقول: "أولئك الأغنياء الذين يملكون "خيام الحديد" ويتحركون بتلك الطريقة كأنهم أفواج الجراد بحثا عن الغزال"(42).

هذه الخيام الحديدية كرمز للحداثة الهجينة، تستنفر عاصفة رملية عاتية تعبيرا عن غربة الصحراء النقية عن سلطة الرجس والدنس، التي تقود الصياد البريء إلى موت قاس، كما لو كان الذهاب إلى الموت هو شرط احتفاظ الإنسان ببراءته المهددة. "كان عساف مدفونا في الرمل، لم يكن يظهر إلا رأسه وفوق الرأس كان الكلب رابضا يشكل سياجا حول جسد عساف – خاصة رأسه – كان يحتضنه "(43)

لقد بدت "النهايات" مرثية شفافة للطبيعة الصحراء الأصل، التي تعالج مخلوقاتها "محكمة غامضة تكفل تجدد المكان وتصد عن الإنسان المجاعة وتحتقب "عقلانية فطرية" توازن القحط بالخصب وتنكر القتل وتعف عن الصيد"، كما يرى فيصل دراج(44)،يتوسع أفق هذه الرؤية في رواية "مدن الملح" لتواجه بسخرية لاذعة أو بإحساس فجائعي أسطورة التمدن والتحضر بعد اكتشاف ذهب الأزمنة الحديثة النفط.فجأة وسط الصحراء القاسية تنبثق هذه البقعة الخضراء، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء، فهي تختلف عن كل ما حولها أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أية صلة، حتى ليحار الإنسان وينبهر، فيندفع إلى التساؤل، ثم التعجب كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا؟" (45).

إنه وادي العيون. الواحة الجميلة، التي ظللتها الأشجار، وروتها العيون في وسط هجير الصحراء القاحلة الجرداء. هذه البقعة الجميلة الحيّة وسط الصحراء، كما يقول قطب عبد العزيز بسيوني، "أصبحت نقطة جذب روائي للتوسع في هذه الدراميّة المكانية التي صارت في معظم روايات منيف، نقطة البداية لتحليل العناصر الأخرى"(46) بل هي تصوير لعبقرية الصحراء وأسرارها وتجلياتها الطبيعية المدهشة.

لكن سكينة المكان وأهله تتبدد مع وصول الأغراب، ففي رواية "التيه" يصف منيف ذلك بقوله" :خلال أيام قليلة تغير كل شيء في وادي العيون: البشر، والطبيعة والحيوانات، فما كاد هذا الأمريكي ورفاقه ومرافقوه، يمضون بضعة أيام، حتى وصل إلى الوادي عدد كبير من

الناس: بشر وأشكال وألوان لا تخطر على بال. فيهم القصير المليء الأحمر الشعر، والطويل الذي يمد يده ويقطف الثمر، فيهم الأسود الذي يشبه الليل. أجسامهم تشبه الخراف المذبوحة عيونهم زرق وأشكالهم تدعو إلى الخوف والتساؤل، وجلبوا معهم أشياء لا حصر لها من الصناديق والأحمال والخيام"(47)،لقد بدا هذا الوصف نقيضا لفتنة المكان الواحة، التي مضى في وصفها عاشق المكان الأول، متعب الهذال، إلى أقصى حدود الرؤية الزمانية المكانية.

شعر أهل البادية أن هؤلاء الأغراب جاءوا ليسرقوا وادي العيون، ويستولوا عليه وبأن المكان سوف ينفجر، ويخرج عليهم هؤلاء شاهرين أسلحتهم ليقتلوهم جميعا. لا سيما أن معداتهم تحدث انفجارات تدوي فيفزع الحيوان والإنسان والطير.

تبرز الصحراء متنا يضيء الواقع يقدم في فضائه الكاتب شهادته على الحقبة النفطية، وعلاقة الشرق بالغرب الغازي، وتناقض قيم الصحراء الرمزية مع لعنة النفط الماديّة ومظاهرها التي فرضها الغرب المسيطر على الصحراء بشروطه فأنشأت كيانات زائفة متنافرة مع طبيعة المكان المحلي ومتطلباته. إنها المدنيّة الزائفة نقيض أصالة الصحراء وعنفوانها. المدى الصحراوي يشكل الثابت الحقيقي الأقرب إلى الرسوخ، وقد انعكس بقوة على الملامح ولون البشرة، ولا يمكن أن تمحوه أو تغيّره الأبنية الحديدية، والزجاجية العالية بضرورة باطنية"(48)

في خماسيّة مدن الملح، كما يقول محمد رشيد ثابت، "يحضر الموروث الأدبي العربي الشفوي، والمدوّن بكثافة. وكذلك الأهازيـج مما جعل لـ مدن الملح فضاء شبيها بالفضاء الملحمي الذي تمثل الأناشيد المؤثرة إحدى مكوناته"(49) .وكذلك تظهر الحكايات والأخبار ذات الطابع الأسطوري.

إن منيف يحاول استعادة ملامح المكان الأصلية وأجوائه وموروثه العريق بعد أن تعمقت الهوة بين الماضي والحاضر، وأصبح هامشا منسيا. وتحول وادي العيون بعد ترحيل أهله منه إلى معسكر سيطر عليه الأمريكان لاستخراج النفط. ويطرح إمكانية التأسيس لمجتمع جديد، لا يكون فيه النفط لعنة في ظل شروط منافية للشروط التي قام عليها ذلك المجتمع في بدايته.

أجزاء رواية خماسية مدن الملح:

التيه: يتناول الجزء الأول بوادر ظهور النفط في الجزيرة العربية من خلال سكانها وتظهر شخصية **متعب الهذال** الرافضة كتعبير عن الموقف العفوي لأصحاب الأرض مما اجبر السلطة أن تستعمل العنف. يصف هذا الجزء بالتفصيل بناء المدن الجديدة (حران كانت النموذج (والتغيرات القاسية والعاصفة على المستوى المكاني وخاصة الإنساني .

الأخدود: في الجزء الثاني ينتقل منيف إلى تصوير اهل السلطة والسياسة في الصحراء التي تتحول إلى حقل بترولي. نقطة البداية كانت انتقال الحكم من السلطان خربيط إلى ابنه خزعل الذي يمنح كل التسهيلات إلى الأمريكان لتحقيق مخططاتهم .الشخصية الرئيسية في هذا الجزء هو مستشار السلطان الجديد صبحي المحملجي الملقب بالحكيم وهو من أصل لبناني جاء إلى حران أولا كطبيب ثم ينتقل إلى العاصمة موران بحس مغامر ليرتقي إلى أكبر المناصب ويبسط نفوذه. في هذا الجزء تزداد وتيرة التحولات حدة وسرعة بحيث لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما ستؤول اليه الأمور. ينتهي هذا الجزء في لحظة انقلاب فنر على اخيه حين كان خارج موران .

تقاسيم الليل والنهار: يعود الجزء الثالث إلى جذور العائلة الحاكمة إلى سنوات التصارع القبائلي التي تتوج خربيط كأهم حاكم في المنطقة في اللحظة التي يقتحم فيها الغرب الصحراء فيجد في تحالفه مع خربيط وسيلة لامتلاك الثروة التي كان يبحث عنها ويستغل السلطان ذلك الظرف للهيمنة على كل ما يمكن أن تطاله يده ويعود هذا الجزء إلى نشأة كل من خزعل وفنر .

المنبت: الجزء الرابع من خماسية مدن الملح حمل عنوان "المُنْبَت" و فيه يستعرض عبدالرحمن منيف حال السلطان المخلوع "خزعل" بعد أن أطاح به أخوه الأمير "فنر" خلال زيارة إلى ألمانيا. هذا الإنقلاب الذي شارك فيه رجال زرعهم مستشار السلطان المخلوع "الحكيم صبحي المحملجي" أثر على العلاقات الودية بين خزعل و الحكيم التي توجت بزفاف السلطان من ابنة الحكيم الوحيدة .

بادية الظلمات: بعد أن يستقر الأمر بلا منازع لفنر يعود منيف لرصد حالة الناس في ظل هذه المتغيرات حيث لا تبقى العادات هي نفسها ولا حتى الأمكنة ويتغير حتى شكل الانتماء والهوية. في هذا الجزء الأخير يصبح اسم الأرض بالدولة الهديبية ويصبح فنر شخصية أسطورية لكنه ينتهي بالاغتيال من خاصته صحراء العريق الرمزي القيمي.

خاتمة : وختاما نقول ان رواية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف تقدم نموذجاً غير مسبوق لتحول المجتمع العربي في زمن البداوة ومن عصر الانغلاق إلى العولمة والانفتاح على الآخر حيث ترصد الرواية بكل دقة تحول هذه المجتمعات باتجاه القرية العالمية الواحدة فيما يعرف بالعولمة والنظام العالم الجديد، وقد وضع عبد الرحمن منيف مدينتي "وادي العيون" و "حران" كنموذجين مصغرين يرصد من خلالهما ديناميكية هذه التحولات التاريخية والتي استتبعت في فلكها تحولات الشخصية العربية كلازمة مهمة لتحولات المكان ضمن خصيصة إنسانية كبرى تربط الإنسان بالمكان روحياً وجسدياً.

-لقد غاب عن ذهنية الكاتب وهو يرصد كل التفاصيل الصغيرة والدقيقة عن هذا التحول بخياله الواسع ما تحتويه هذه التحولات من جوانب إيجابية عن طريق التقريب الزمني الذي يستتبع عملية التحول ودخول أدوات التكنولوجيا إلى صحراء العرب وامتداد الجسور بين الأنا والآخر لإضاءة عوالم كل منهما ودراسة خصائص الإنسان المشتركة وتحويل هذا العالم الموحش إلى حفلة غنائية راقصة بتعبير الغفوري عن طريق إمكانيات التكنولوجيا وما أحدثته من قفزة هائلة للإنسانية لتسخير هذا الكون في سبيل رفاهية الإنسان.

- إن المبدع الروائي يوظف فضاءات مختلفة ومتعددة، ومفتوحة ومغلقة، خارجية وداخلية فيركز على هذه، ويمر مر السحاب على تلك، لا لسبب إلا لأن الأمر مرتبط بقصدية معينة، فهو في كل مرة يضمن هذا التوظيف معاني إيديولوجية محددة، تكون مرة عاملا في إنتاج هذا المكان ومرة أخرى يكون المكان هو المنتج لتلك الايدولوجيا

- استطاع عبد الرحمن منيف بخياله وعبقريته في رصد التحولات الإنسانية والمتغيرات البيئية – وهو الذي عاش في حياته جزءاً من هذا التحول – أن يخلد مرحلة هامة من مراحل المجتمع العربي بدقة متناهية في رصد جميع التغيرات الفسيولوجية التي تصاحب التغيرات على الأرض والواقع، ففي الحين الذي انتهى منه عبد الرحمن منيف من

كتابة روايته أرسلها إلى صديقه الأديب جبرا إبراهيم جبرا الذي رد بدوره عليها بالآتي: لا أظن أن كاتباً عربياً – روائياً أو غير روائي – كتب في الماضي شيئاً يقارب ما كتبت في هذه الرواية وبعد أن كتبتها لا أظن أن كاتباً سيجرؤ على أن يكتب شيئاً مثلها في المستقبل.

نبذة عن حياة المؤلف عبد الرحمان منيف

ولد عبد الرحمن إبراهيم منيف في عمان عام 1933م من أب سعودي و أم عراقية. كان أبوه ينتقل من نجد إلى العراق وسورية والأردن بحثا عن الرزق. ومات في إحدى هذه الرحلات وهو لم يبلغ ثلثة من عمره. تمت تربيته تحت إشراف جدته. ما زال منيف ينتقل من مكتب إلى أخر حتى التحق بالمدرسة الحكومية وأنهى دراسته الثانوية منها ثم غادر إلى العراق والتحق بكلية الحقوق ببغداد لكنه طرد منه، قبل أن تنتهي دراسته، بجماعة من المواطنين الآخرين الذين شاركوا في احتجاج ضد "حلف بغداد" عام 1955م. فذهب إلى مصر وواصل دراسته حيث تخرج من جامعة القاهرة في الحقوق. ثم انتقل إلى يوغسلافيا على المنحة الدراسية لحزب البعث. وواصل دراسته منذ عام 1958م إلى 1961م. ونال درجة العالمية "الدكتوراه" في اقتصاديات النفط بجامعة بلغراد. وبدأ يعمل في مكتب حزب البعث الرئيسي في بيروت بعد عودته من يوغسلافية. وخلال هذه الأيام حوكم عليه أن لا يدخل في العراق لانتقاده حزب البعث وسحب منه جنسيته المملكة العربية السعودية عام 1963م لأفكاره السياسية ضدها. فغادر إلى سوريا والتحق بوزارة النفط وعمل فيها حتى نهاية عام 1974م. ثم مارس حياته في الصحافة وعمل في مجلة "البلاغ" الصادرة من لبنان، ومجلة "النفط والتنمية" الصادرة من العراق كرئيس التحرير. وفي عام 1981م تفرغ عبد الرحمن منيف نفسه كاملا لكتابة الرواية ووصل إلى فرنسا. ومكث هناك سنوات عديدة ثم رجع إلى دمشق وكرس حياته لكتابة الرواية حتى توفى 23 يناير 2004م بسوريا.

مؤلفاته الروائية:

الأشجار واغتيال مرزوق (1973م)، 2. قصة حب مجوسية (1974م)، 3. شرق المتوسط (1975م)، 4. حين تركنا الجسر (1976م)، 5. النهايات (1977م)، 6. سباق المسافات الطويلة (1979م)، 7. عالم بلا خرائط (1982م) . (اشترك معه في كتابتها جبرا إبراهيم جبرا)، 8. مدن الملح (خماسية): .Iالتيه (1984م)، .IIالأخدود (1985م)، .IIIتقاسيم الليل والنهار (1989م)، .IVالمنبت (1989م)، .Vبادية الظلمات (1989م)، 9.الآن ... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى (1991م)، 10. أرض السواد (ثلثة أجزاء)، (1999م)، 11. أم النذور (2005م).وله مؤلفات عديدة في مجالات شتى. ففي قصة قصيرة "أسماء مستعارة" (2006م) و"الباب المفتوح" (2006م)، وفي السيرة "سيرة مدينة: عمان في الأربعينات" (سيرة ذاتية) . (1994م)، و"عروة الزمان الباهي" (1997م)، و"لوعة الغياب" (2001م)، و"ذاكرة للمستقبل" (2001م)، وفي الأدب والسياسة "الكاتب والمنفى: هموم وآفاق الرواية" (1991)، و"الديمقراطية أولا . . . الديمقراطية دائما" (1995م)، و"بين الثقافة والسياسة" (1999م)، و"رحلة ضوء" (2001م)، وفي التاريخ "العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة (2003م)، وفي الاقتصاد "مبدأ المشاركة وتأميم البترول العربي" (1973م)، و"تأميم البترول العربي" (1976م)، وفي الفن الحديث "مروان قصاب باشي: رحلة الحياة

والفن (1996م)، و"جبرا علوان: موسيقا الألوان" (2000م)، و"في أدب الصداقة" (2012م).

قائمة الهوامش

1- مؤنس الرزاز، متاهة الأعراب في ناطحات السراب، ط1، المؤسسة العربية، بيروت 1986 ص157. انظر/ي أيضا دراسة طه وادي، الكتابة السردية وأزمات الحرية في "الحرية والإبداع واقع وطموحات "بحوث المؤتمر العلمي السادس لكلية الآداب والفنون في جامعة فيلادلفيا 17-15أيار 2001 . تحرير ومراجعة عز الدين المناصرة، وحسن عليان، ومحمد عبيد الله.

2-غالي شكري، سوسيولوجيا النقد العربي الحديث، ص200، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1981.

3- الحواس: عبارة "القراءة بكل الحواس لأعمال الصحراء الأدبية" هي التعبير الذي استخدمه الناقد سعيد الغانمي في ملحمة الحدود القصوى المخيال الصحراوي- سمر روحي فيصل، الرواية العربية البناء والرؤيا، إتحاد كتاب الغرب، دمشق، 2003، ص 71.

4- سمر روحي فيصل، الرواية العربية البناء والرؤيا، إتحاد كتاب الغرب، دمشق، 2003، ص 71.

5- حسن بجراوى، بنية الشكل الرّوائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط1، 1990، ص ص35-90.

6- ينظر: محمود البطل، سيزا قاسم، يوري لوتمان وآخرين، جماليات المكان عيون المقالات، الدار البيضاء، ط2، 1988، ص ص61-62.

7- ياسين النصير، الرواية المكان، دار نينوى، دمشق، ط 2، د ت، ص 70.

8- عبد الرحمن منيف، حماسية مدن الملح، التيه، الجزء الأوّل، ص 107.

9- عبد الرحمن منيف، المصدر نفسه، ص 158.

10-المصدر السابق، ص 514.

11-انظر/مدن الملح، الأخدود، الجزء الثاني، ص 325.

12-المصدر نفسه، ص ص 300-302.

13-انظر/الدراسات الاجتماعية عن المرأة في العالم العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، اليونسكو، ط1، 1984، ص 40.

14-انظر/ مدن الملح، تقاسيم الليل والنهار، الجزء الثالث،ص 26.

15-انظر/ مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط2، 1980، ص 244.

16-مدن الملح: الأخدود، ص ص 352-354.

17-المصدر السابق، ص 355.

18-انظر/المصدر نفسه، ص ص 356-357

19-البيت الأندلسي، ص 31.

20- مدن الملح، التيه، الجزء الأول، ص 196.

21- مدن الملح، التيه، الجزء الأول، ص 485.

22- المصدر نفسه، ص 487.

23- المصدر نفسه، الأخدود، الجزء الثاني، ص 234.

24- نفسه، التيه، الجزء الأول، ص 494، وكذلك الأخدود، الجزء الثاني، ص ص 241-242.

25- المصدر السابق، الأخدود، الجزء الثاني ص 573.

26- المصدر نفسه، التيه، الجزء الأول، ص 524.

27- المصدر نفسه، ص 425.

28- المصدر السابق الأخدود، الجزء الثاني، ص ص 352-354.
29- مدن الملح، الأخدود، الجزء الثاني، ص 365.
30- المصدر نفسه، التيه، الجزء الأول، ص ص 180-184.
31- وهي كالآتي: تقاسم الليل والنهار، المنبت وبادية الظلمات،ط2 1989.
32- المصدر نفسه، بادية الظلمات، الجزء الخامس، ص 500.
33- مثلا في الجزء الثالث: تقاسيم الليل والنهار نجد الصفحات الآتية 9-10-38-44-82-100-123-164..وفي بادية الظلمات نجد،52،505.
34-المصدر السابق بادية الظلمات، ص ص 400-401.
35- مدن الملح، بادية الظلمات، ص 569.
36-سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، ص162، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء 2000.
37- تعليق حسن المؤذن مع أصدقاء الكوني على موقع أعلام من ليبيا، الكوني.
38- سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى. ص ص 157-158.
39- ابن خلدون. المقدمة، دار الشعب، القاهرة، بلا تاريـخ ص54.
40-عبد الرحمن منيف "النهايات" روايات الهلال. دار الهلال . العدد 452 ص13.
رواية "النهايات" ص21.
41-الكاتب والمنفى" هموم وآفاق الرواية العربية. مجموعة حوارات مع عبد الرحمن منيف. ط2 منقحة، 1994. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ص ص 22-28.
42- قطب عبد العزيز بسيوني . تجليّات المكان في روايات عبد الرحمن منيف. ص115، دورية إبداع السنة 19 أكتوبر (تشرين الأول) 2001، مجلد 19، 10-1، ص ص 112-123.
43- فيصل درّاج، "عبد الرحمن منيف ومساءلة التاريـخ"، دورية نزوى، فصلية ثقافية العدد 37،38 إبريل 2004 ص22 وص28.
44- رواية "النهايات"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة العاشرة 1999، انظر/ي أيضا دراسة فيصل دراج السابقة ص23.
45- رواية "النهايات."
46- فيصل دراج. "عبد الرحمن منيف ومساءلة التاريـخ" ص22.
47- مدن الملح، الجزء الأول، "التيه"، عبد الرحمن منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1985 بيروت.
48- قطب عبد العزيز بسيوني، تجليات المكان في روايات عبد الرحمن منيف. ص119.
49-خماسية مدن الملح، روايات عبد الرحمن منيف من المظهر السير ذاتي إلى الشكل الملحمي .محمد رشيد ثابت، مركز النشر الجامعي، منشورات سعيدان، تونس، سوسة 2006، ص232.

List of sources and references

- Cities of Salt: Al-Akhdood, Arab Foundation for Studies and Publishing, tenth edition Andalusian House.
- Cities of Salt, Desert of Darkness, Arab Foundation for Studies and Publishing, tenth edition.

- The Senses: The phrase "reading with all the senses the literary works of the desert" is the expression used by the critic Saeed Al-Ghanimi in the epic of the extreme borders, the Desert Imagination - Samar Rawhi Faisal, The Arab Novel, Construction and Vision, Western Writers Union, Damascus, 2003.
- Saeed Al-Ghanimi, The Epic of the Extreme Frontiers, The Desert Imagination in the Literature of Ibrahim Al-Koni, 1st edition, Arab Cultural Center, Morocco, Casablanca 2000.
- Hassan Al-Muezzin's comment with Al-Koni's friends on the website of flags from Libya, Al-Koni.
- Saeed Al-Ghanimi, The Epic of the Extremes.
- Ibn Khaldun. Introduction, Dar Al-Shaab, Cairo, no date
- Samar Rawhi Faisal, The Arab Novel, Construction and Vision, Western Writers Union, Damascus, 2003,
- The Writer and the Exile: Concerns and Horizons of the Arabic Novel. A collection of dialogues with Abd al-Rahman Munif. 2nd edition, revised, 1994. The Arab Foundation for Studies and Publishing. Beirut.
- Qutb Abdel Aziz Bassiouni. Manifestations of place in the novels of Abdul Rahman Munif., Creativity of the Year Journal, October 19, 2001, Volume 19, 1-10.
- The novel "The Ends", 1999. See also Faisal Darraj's previous study.
- Cities of Salt, Part One, "The Lost," Abd al-Rahman Munif, Arab Foundation for Studies and Publishing, 1985, Beirut.
- The Cities of Salt Quintet, novels by Abdul Rahman Munif from the autobiographical appearance to the epic form. Muhammad Rashid Thabet, University Publishing Center, Saidan Publications, Tunisia, Sousse 2006.
- Abd al-Rahman Munif, Hamasiyah Cities of Salt, The Lost, Part One.
- Munis Al-Razzaz, The Bedouins' Labyrinth in the Skyscrapers of the Mirage, 1st edition, Arab Foundation, Beirut 1986. See also Taha Wadi's study, Narrative Writing and Crises of Freedom in "Freedom and Creativity, Reality and Aspirations," Research Papers of the Sixth Scientific Conference of the College of Arts and Letters at Philadelphia University 15-May 17, 2001. Edited and reviewed by Izz Al-Din Al-Manasra, Hassan Alyan, and Muhammad Ubaidullah.
- Social Studies on Women in the Arab World, Arab Foundation for Studies and Publishing, UNESCO, 1st edition, 1984.
- Mustafa Hijazi: Social Backwardness, Psychology of the Oppressed Man, Arab Development Institute, Beirut.
- Ghali Shukri, Sociology of Modern Arab Criticism, p. 200, Dar Al-Tali'ah, Beirut, 1st edition, 1981.

- Faisal Darraj, “Abdul Rahman Munif and the Accountability of History,” Nizwa Periodical, Cultural Quarterly, No. 37, 38, April 2004.
- Faisal Darraj. "Abdul Rahman Munif and questioning history".
- Qutb Abdel Aziz Bassiouni, Manifestations of Place in the Novels of Abdel Rahman Munif.
- Hassan Bagrawi, The Structure of the Novelist Form, Arab Cultural Center, Casablanca/Beirut, 1st edition, 1990.
- Mahmoud Al-Batal, Siza Qasim, Uri Lotman and others, Aesthetics of Place, Eyes of Articles, Casablanca, 2nd edition, 1988.
- Yassin al-Nusair, the novel The Place, Nineveh Publishing House, Damascus, 2nd edition, d.d.